

مانفستو الديك النوبي.. قراءة لعنة التاريخ (1)

محفوظ بشري (2)

يعود الروائي السوداني عبد العزيز بركة ساكن (1963م) إلى العوالم المنسية في السودان، بعد أن خرج -نسبياً- في آخر رواياته «الرجل الخراب»، إلى عالم المهاجرين صوب أوروبا، وما يصيبهم من تسليخات نفسية جراء اختلاف الثقافات. لكنه في هذه المرة، يدخل إلى أحياء الفقراء في العاصمة الخرطوم، وعوالم التنقيب الأهلي عن الذهب في الصحراء الشمالية، والأساطير التي تحيط بها.

ففي روايته الجديدة «مانفستو الديك النوبي» (مسكرياني للنشر، تونس 2016)؛ يمزج بركة، البؤس والغرائبية والفساد، لتكشف التحولات الخشنة التي تضرب المجتمعات السودانية بسبب الفقر والحروب.

يجعل الفقر كثيراً من القيم والقواعد قابلة للاختراق، طالما أنها موروثه من أزمان تختلف فيها قوانين الحياة، عما يواجهه السودانيون الريفيون ممن نزحوا إلى تخوم الخرطوم، بحثاً عن فئات من التعليم والعلاج لا

(1) نشر المقال بصحيفة الترا صوت الإلكترونية بتاريخ 14 يوليو 2016.

(2) كاتب صحفي سوداني.

يجدون ربحه في فيافهم البعيدة، الموبوءة بالنزاعات القبلية، والحروب بين الحاكمين في العاصمة والمتمردين عليهم في أقاليم البلاد الأخرى. فعند أول هزة، تنهاوى مقولات «الأخلاق السودانية» التي تحكم العلاقات بين المتساكنين، لتحل محلها انتهازية يغذيها انسداد الأمل في مستقبل أفضل، فيصبح كل سعي مشروعاً، طالماً أنه يخرج من حياة الأكواخ إلى نعيم الأحياء الراقية المترفة.

اختار فتح الله فراج، الخروج من فقره الموروث، بأي ثمن، قامعاً صوت ضميره بكل ما طالته يده من مبررات. فبعد عودتهما من معسكرات التنقيب الأهلي عن الذهب؛ مات جبريل كيري، صديق فتح الله ورفيقه؛ مسموماً جراء ابتلاع خاتمين ذهبيين عثر عليهما داخل أحد القبور النوبية الأثرية، وقرر الاحتفاظ بهما، بدلاً من تسليمهما إلى «الجلابي» المنقب الذي وظفهما، بمقابل لا يوازي المخاطرة التي يجتازانها في سبيل العثور على عروق التبر، أو الآثار الذهبية المدفونة هناك لآلاف السنين، والمحروسة بالجن والتعويذات السحرية.

رافق الخاتمان ظهور ديك غريب في منزل جبريل، في يوم موته ذاته، يبيض بيضات حجرية، اكتشف فتح الله أن تحت قشرتها بيض من الذهب، ما حمله على التحايل بشتى الطرق للحصول عليها، مبرماً اتفاقاً غامضاً مع الديك-الشیطان، حارس الذهب في القبور النوبية، بأن يكون له الشراء، لكنه، أي الديك، سيستولي على روحه في الدنيا وبعد الموت. متجاهلاً وخزات ضميره، وأن أبناء صديقه الفقراء أحق بهذا المال؛

صعد فتح الله سريعاً إلى مصاف الأثرياء، دافعاً ثمن صعوده هذا صحة عقله. بينما أخذت أسرته، وهي ترسخ أقدامها في مجتمع النخبة الجديد، تكتشف أن القيم الأخلاقية التي ينتجها الفقر، هي نفسها التي ينتجها الثراء، لا فرق. فعدم الالتزام بالمحرمات الدينية والاجتماعية هو نفسه، وإن اختلفت الدوافع.

يواصل بركة، في هذا العمل أيضاً، محاولات التجريب التي بدأها في أعمال سابقة، فنجد في «مانفستو الديك النوبي» صوت الراوي يعلو أحياناً حتى يخفي كل صوت عداه، بينما يخفت في أماكن أخرى حتى لا يُرى. أيضاً أفسح الكاتب عدة صفحات سرد فيها أسماء لشخصيات سودانية معروفة من مختلف الأجيال، في اصطفاً ربما يريد أن يشير به إلى كثرة المقاومين لمشروع الإخوان المسلمين في السودان، وفقاً للسياق الذي جاءت فيه هذه الأسماء، حيث اصطف الجميع قبالة مشهد «الكشة» حين صادرت السلطات أدوات الرزق البائسة لفقراء يعيشون على هامش المدينة.

أيضاً، ختم بركة الرواية بفصل يتداخل فيه الراوي وشخصية بركة ساكن، لينتهي ببداية الرواية من جديد. حيث امتزجت حياة أدومة/ بركة/ الراوي؛ بأحداث الرواية، عبر 336 صفحة، قبل أن يفصل الكاتب هذا المزيج في النهاية، لمرة تكفي لانتباه القارئ فقط، قبل أن يبدأ المزج من جديد.

ثمة إشارة خافتة حملتها رواية «مانفستو الديك النوبي»، نلاحظها

في الربط بين الماضي النوبي للسودان، والحاضر الذي انتشرت فيه لعنة الذهب، والقفز فوق الحقب الوسيطة بين الزمنين. وكأن عبد العزيز بركة، يرغب في القول إن نهب ثروة التاريخ النوبي المستبعد لصالح المشروع العربي الإسلامي في السودان، هو مصدر اللعنة التي تحيق بواقعنا الكارثي اليوم.